المحاضرة السابعة: مصطلح الخيال

الخيال من القوى الخفية التي تتحكم في العملية الإبداعية، وقد استرعى انتباه النقاد منذ وقت مبكر، حيث اشتغل النقد العربي القديم في ميدان الأدب على أن الصورة الشعرية لبنة للخيال الأدبي، وقد تمت دراسة الخيال ضمن للأنواع البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية، وسائر أضرب المجاز، ولم تكن الصورة الشعرية مصطلحا نقديا كما هو الشأن بالنسبة للعصر الحديث.

والخيال في مفهومه الحديث هو عملية توليد الصورة التي وظفتها تصوير الحقائق النفسية والأدبية، ولم ستقر معناه حسب غنيمي هلال "إلا مع فلاسفة الرومانتيكية والفيلسوف كانت، ولكن النقد القديم كله قبل ذلك ظل أبعد ما يكون من هذا الفهم الحديث"[1].

والخيال أحد العاصر الرئيسية للإبداع الفني "وهو المعين الواسع الذي يمد المبدع بكل أفكار التكوين الشعري والابتكار والتجديد، كما أنه يقوده إلى الصورة الفنية التي تبنع من مخيلة المبدع ورؤيته الذاتية، التي ترجع بدورها إلى الصياغة أو تأليف الكلام كما ترجع إلى الخيال الذي يضفي على الأشياء الجامدة حياة إنسانية بالتشخيص والتجسيد"[2]

تعريف الخيال

أ- **لغة:** الخيال لغة: الطيف. وخالَ: ظن. وخيّل: أوهم[3]. والتخيل والتخييل يدلان على عملية التأليف بين الصور وإعادة تشكيلها. وقد ورد مصطلح الخيال لدى الجاحظ[4] (255هـ) وابن قتيبة[5] (276هـ) وابن المعتز[6] (296هـ).

---

[1]- محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص161.

[2]- فاطمة سعيد أحد حمدان: مفهوم الخيال ووظيفته ف النقد القديم والبلاغة، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1410هـ، 1979، ص 241.

[3]- لسان العرب: مادة (خيل). نقلا عن محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي ، ص177

[4]-الحيوان 250/9.. محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي ص177

[5]- ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص 87. محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي ، ص177

[6]- ابن المعتز: فصول التماثيل. نقلا محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي ، ص177.

والتعبير غير المباشر يقوم على التخييل، وهو من خصائص الأساليب الشعرية، والتخييل بما يحمل من إثارة وجدانية، يمكن أن يمثل جوهر الصورة الشعرية، وقد التفت الفلاسفة والنقاد إلى تعريفه، وتقييمه، والتمثيل له.

تعريف الخيال في المعاجم

جاء في المعجم المفصل في الأدب: "هو ملكة من ملكات العقل، لا تتهيأ لأي إنسان، وبها يستطيع الأديب أن يخلُق صورا تنعم على النص صورا جذابة، وتمنح القارئ واسطة لتوسيع آفاقه. وقد اهتم الرومانتيكيون بالخيال. وجعلوه مرقاة لكثير من أعمالهم. والخيال ضروري للإنسان ولا غُنية عنه. وهو كالنهر الجميل المتدفق في صدر الإنسانية"[1].

التخييل عند الفلاسفة

لعل الكندي هو أول من حدد الدلالة الاصطلاحية للتخييل، إذ جعله مرادفا للتوهم. ثم نجد الفارابي (339هـ) يستخدم هذا المصطلح. وقد أخذه ممن سبقوه من نقلة كتاب (الشعر) لأرسطو، أو مختصريه، فقد استخدمه متىّ بن يونس (328هـ) في ترجمته لكتاب أرسطو ولكن مصحفا (التجميل أو التبجيل) وبذلك فإن الفارابي لم يعرف التخييل وإنما أشار إلى أثره النفسي. وأثره النفسي عنده يشبه أثر المحاكاة في الفعل التمثيلي المأساوي عند أرسطو، أي الفعل الذي يثير الرحمة أو ا لخوف فيؤدي إلى تطهير الانفعالات.

وهذا يعني أن الفارابي يفهم التخييل على أنه الإيحاء، أو خلق حالة نفسية في ذات المتلقي، هي قبول أو نفور، يقول: "والأقاويل الشعرية هي التي تركب من أشياء شأنها أن تخيل في الأمر الذي فيه المخاطبة حالا أو شيئا أفضل أو أخس، وذلك إما إجمالا أو إجلالا أو هوانا أو غير ذلك"[2].

التخييل عند النقاد

[1]– محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب.، ص419.

[2]– إحصاء العلوم، ص81–85. نقلا عن: أ محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي ص178.

تعريف الخيال عسير ككل المعاني ومن أسباب صعوبة التعريف أن الكلمة تستعمل في أنواع مختلفة من العمليات العقلية، وكما قال راسكين :"إن ملكة الخيال غامضة لا يمكن تعريفها إنما يمكن معرفتها بأثرها"[1].

عرف النقاد العرب ألوان الخيال، ولكنهم لم يقفوا لدراستها إلا عندما تتجسد في صور كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، فقد فصلوا القول في هذه الفنون البلاغية. دون أن أن يناقشوا الخيال بصورة عامة، ولعل عبد القاهر الجردجاني (471هـ) من أوائل النقاد العرب الذين عرفوا التخييل، وهو عنده "ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا، ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولا يخدع فيه نفسه، ويريها ما لا ترى"[2]. وبهذا فهو ينحو بمصطلح التخييل منحى نابعا من ثقافته البلاغية، وفكرته عن الإعجاز مبتعدا عن المؤثرات اليونانية التي اعتمدها الفلاسفة العرب. فهو يهمل مصطلح المحاكاة ويكتفي بمصطلح التخييل، فيعود به إلى معناه اللغوي ويعرفه بأنه " هو ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا، وأنه خداع للعقل، وضرب من التزويق"[3].

ولعل حازم القرطاجني (684هـ) من أشهر المتأثرين بالثقافة اليونانية، فهو يقتبس من أرسطو عبر ابن سينا وابن رشد، ويتابع عبد القاهر في أن التخييل إيهام دون أن يذهب مذهبه في أنه خداع. ومن هنا يبدو حازم أدق الذين عرفوا التخييل. و التخييل عنده هو أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه أو نظامه. وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها وتصوّرها أو تصوّر شيئا أخرجها انفعالا من غير روية"[4].

والتخييل عند حازم تصور تنشئه في نفس الشاعر عناصر الشعر المختلفة (اللفظ والمعنى والوزن والنظم والأسلوب)، ويؤدي إلى انفعال لا واع. ومن أجل تحسين التخييل يوجب حازم الابتعاد عن الكلام الساذج. وهذا يعني أن التخييل عمل ذكي يتطلب أن تتوالى في الكلام

---

[1]– أحمد أمين: النقد الأدبي الحديث، دار موفم للنشر، طبع المؤسسة الوطنة للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 1992،ص54.

[2]– الجرجاني: أسرار البلاغة، 253. نقلا عن محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي ، ص180.

[3]– الجرجاني: أسرار البلاغة، 253. نقلا عن : محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي ، ص180.

[4]– منهاج البلغاء، ص89. نقلا عن محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي ص 180.

التركيبات المستحسنة.، والترتيبات والاقترانات، والنسب الواقعة بين المعاني مما لها الأثر النفسي القوي.

وقد استطاع حازم أن يتجاوز خطى النقاد المتقدمين، وأن يقيم توازنا بين عناصرها الأربعة: العالم الخارجي، والمبدع، والنص، والمتلقي، وأن يربط فاعلية التخييل بالقدرة على إدراك التناسب بين الأشياء (وهي القدرة الشاعرة).

وبهذا يعمق الشعر وعي المتلقي، ويمكنه من رؤية الأشياء بمنظور متميز أشمل وأدق مما ألفه في إدراكه العادي. وإذا كان أهم ما يميز الشعر قدرته التخييلية التي تجمع بين الأشياء المتباينة، وتعيد تشكيل الواقع من جديد، فإن من الضروري أن تنحصر فاعلية التخييل الشعري في نطاق الممكنات دون المستحيلات.[1] وذلك أن الصور التي تشكلها قوة التخييل إذا كانت مستحيلة نفرت منها النفس: "والمحال تنفر عنه النفس، ولا تقبله البتة، فكان مناقضا لغرض الشعر. إذ المقصود بالشعر الاحتيال في تحريك النفس لمقتضى الكلام بإيقاعه منها بمحل القبول بما فيه من حسن المحاكاة"[2]

الخيال في الأدب

لا بد للأدب من عنصر الخيال وهو ضروري في كل أنواع الأدب، "وهو الكوة التي نستطيع بها أن نصور الأشخاص والأشياء والمعاني ونمثلها شاخصة أمام من نخاطبه ونستثير مشاعره"[3].

ويشرح راسكين عملية الخيال فيقول:"كل من الشاعر والمصور يلتقط كل ما رأى وما سمع طوال حياته، ولا يفوتهما منظر حتى لو كان أدق طيات الملابس أو حفيف الشجر، ثم يخزنانها، ثم يهيم الخيال، فيستخرج منها صورا وآراء متناسبة منسقة في الأوقات الملائمة، ومن هذا نرى أن الصور التي يخلقها الخيال لاعداد لها، وهو يدخل كثيرا أو قليلا في عملياتنا العقلية.فهو الملكة التي تربط الحقائق المفككة للحياة"[4].

ويلخص أحمد أمين أنواع الخيال فيما يلي[5]:

---

[1]– نفسه، ص20. محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث العربي

[2]– نفسه، ص294.

[3]– أحمد أمين: النقد الأدبي الحديث، ص40.

[4]– المرجع نفسه، ص55.

[5]– المرجع نفسه، ص56 وما بعدها.

1-الخيال الخالق وهو الذي يخلق العناصر الأولى التي تكتسب من التجارب صورة جديدة لا تنافي الحياة المعقولة، فإن نافتها كانت وهما.

2-الخيال المؤلف ومثاله أن ترى شجرة ناضرة أحياها الربيع وأسبل عليها جماله، ثم يأتي الشتاء فيعري أوراقها وأزهارها، ويرى الشاعر هذا المنظر فيعمل فيه خياله ويقارن بينه وبين منظر آخر كشعر ابن الرومي في وصف الخباز:

ما أنس لا أنسى خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

ما بين رؤيتـــها في كفــه كرة وبين رؤتها قـــــوراء كالقمــر

إلا بمقدار ما تتداح دائـــــرة في لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وكقول الشاعرة الأندلسية حمدة بنت زياد:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم

حللنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم

يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

فقد ألف بين امرأة كأن عقدها انتثر فتلمسته لتعرف حقيقة ذلك وبين الرجل يسير ف واد جميل الحصا حتى ليشك في هذا الحصا:أهو حصا أم أحجار كريمة.

وسني هذا بالخيال المؤلف لنه ؤلف بين مناظر مختلفة، فالشاعر يشعر بالشيء وأثره في نفسه، وهذا يستدع عنده صورة أخرى أثارت مثل ذلك الشعور من قبل، فيؤلف بين الشعورين بضرب من التشبيه.

3-الخيال الموحي أو الموعز:وهذا النوع يفيض على الصورة التي رآها صفات ومعان روحية تؤثر في النفس، وبعبارة أخرى يغوص في باطن الشيء، فيصل إلى مكان الحياة منه، ثم يخرجه إلى الناس كما يشعر به، ومن أمثلته قول الشاعر الموصلي: السري الرفاء في وصف شمعة:

مفتولة مجدولــة تحكي قد الأســل

كأنها عمر الفنى والنار فيها كالأجل